فيه ولا شك فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه ، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه (وما أنا عليكم بوكيل) أى وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين وإنما أنا نذير لكم ، والهداية على الله تعالى وقوله (واتبع ما يوحى إليك واصبر) أى تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك واصبر على مخالفة من خالفك من الناس (حتى يحكم الله) أى يفتح بينك وبينهم (وهو خير الحاكمين) أى خير الفاتحين بعدله وحكمته .

﴿ تفسير سورة هود عليه السلام وهى مكية ﴾

قال الحافظ أبو يعلى حدثنا خلف بن هشام البزار حدثنا أبو الأحوص عن أبى إسحق عن عكرمة قال : قال أبو بكر سألت رسول الله ﷺ ما شيبك ؟ قال « شيبتنى هود والواقعة وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت » وقال أبو عيسى الترمذى حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء حدثنا معاوية بن هشام عن شيبان عن أبى إسحق عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال أبو بكر يا رسول الله قد شبت قال « شيبتنى هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت » وفى رواية « هود وأخواتها » وقال الطبرانى حدثنا عبدان بن أحمد حدثنا حجاج بن الحسن حدثنا سعيد بن سلام حدثنا عمر بن محمد عن أبى حازم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «شيبتنى هود وأخواتها : الواقعة والحاقة وإذا الشمس كورت » وفى رواية « هود وأخواتها » وقد روى من حديث ابن مسعود نحوه فقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى فى معجمه الكبير حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة حدثنا أحمد بن طارق الرابشى حدثنا عمرو بن ثابت عن أبى إسحق عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن أبابكر قال يا رسول الله ما شيبك ؟ ، قال « هود والواقعة » . عمرو بن ثابت متروك وأبو إسحق لم يدرك ابن مسعود والله أعلم

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ * إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء فى أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا وبالله التوفيق ، وأما قوله (أحكمت آياته ثم فصلت) أى هى محكمة فى لفظها مفصلة فى معناها فهو كامل صورة ومعنى ، هذا معنى ماروى عن مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير .وقوله(من لدن حكيم خبير) أى من عند الله الحكيم فى أقواله ، وأحكامه خبير بعواقب الأمور (ألا تعبدوا إلا الله) أى نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له كقوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقوله (إننى لكم نذير وبشير) أى إنى لكم نذير من العذاب إن خالفتموه ، وبشير بالثواب إن أطعتموه كما جاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ صعد الصفا فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب فاجتمعوا فقال « يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تصبحكم ألستم مصدقى ؟ » فقالوا ما جربنا عليك كذبا قال « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » وقوله (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله) أى وآمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله عز وجل فما تستقبلونه ، وأن تستمروا على ذلك(يمتعكم متاعا حسنا) أى فى الدنيا (إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله) أى فى الدار الآخرة قاله قتادة كقوله (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن

فلنحيينه حياة طيبة) الآيه وقد جاء فى الصحيح أن رسـول الله ﷺ قال لسعد « وانك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل فى فى امرأتك » وقال ابن جرير حدثنى المسيب بن شريك عن أبى بكر عن سعيد بن جبير عن ابن مسعود رضى الله عنه فى قوله (ويؤت كل ذى فضله فضله) قال من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات فإن عوقب بالسيئة التى كان عملها فى الدنيا بقيت له عشر حسنات وإن لم يعاقب بها فى الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ، ثم يقول هلك من غلب آحاده على أعشاره ، وقوله (وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير) هـذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى وكذب رسله فان العذاب يناله يوم القيامة لا محالة (إلى الله مرجعكم) أى معادكم يوم القيامة (وهو على كل شىء قدير) أى وهو القادر على مايشاء من إحسانه إلى أوليائه وانتقامه من أعدائه ، وإعادة الخلائق يوم القيامة ، وهذا مقام الترهيب كما أن الأول مقام ترغيب .

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

قال ابن عباس كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم وحال وقاعهم فأنزل الله هذه الآية ، روى البخارى من طريق ابن جريج عن محمد بن عباد بن جعفر أن ابن عباس قرأ ألا إنهم تثنونى صدورهم ، الآية فقلت يا أبا العباس ما تثنونى صدورهم ؟ قال الرجل كان يجامع امرأته فيستحى أو يتخلى فيستحى فنزلت : ألا إنهم تثنونى صدورهم . وفى لفظ آخر له قال ابن عباس أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيهم ثم قال : حدثنا الحميدى حدثنا سفيان حدثنا عمرو قال قرأ ابن عباس . ألا إنهم تثنونى صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم . قال البخارى وقال غيره عن ابن عباس (يستغشون) يغطون رءوسهم ، وقال ابن عباس فى رواية أخرى فى تفسير هذه الآية يعنى به الشك فى الله وعمل السيئات وكذا روى عن مجاهد والحسن وغيرهم أى أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك فأخبرهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم فى ظلمة الليل (يعلم مايسرون) من القول (وما يعلنون * إنه عليم بذات الصدور) أى يعلم ما تكن صدورهم من النيات والضمائر والسرائر ، وما أحسن ما قال زهير بن أبى سلمى فى معلقته المشهورة

فلا تكتمن الله مافى قلوبكم * ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر * ليوم حساب أو يعجل فينقم

فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلى بوجود الصانع وعلمه بالجزئيات وبالمعاد وبالجزاء وبكتابة الأعمال فى الصحف ليوم القيامة ، وقال عبد الله بن شداد : كان أحدهم إذا مر برسول الله ﷺ ثنى عنه صدره وغطى رأسه فأنزل الله ذلك ، وعود الضمير إلى الله أولى لقوله (ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون) وقرأ ابن عباس ألا إنهم تثنونى صدورهم برفع الصدور على الفاعلية وهو قريب المعنى

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض صغيرها وكبيرها بحريها وبريها وأنه يعلم مستقرها ومستودعها أى يعلم أين منتهى سيرها فى الأرض وأين تأوى إليه من وكرها وهو مستودعها . وقال على بن أبى طلحة وغيره عن ابن عباس (ويعلم مستقرها) أى حيث تأوى (ومستودعها) حيث تموت ، وعن مجاهد (مستقرها) فى الرحم (ومستودعها) فى الصلب كالتى فى الأنعام ، وكذا روى عن ابن عباس والضحاك وجماعة ، وذكر ابن أبى حاتم أقوال المفسرين ههنا كما ذكره عند تلك الآية فالله أعلم ، وأن جميع ذلك مكتوب فى كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك كقوله

(ومامن دابة فى الأرض ولاطائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم مافرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون) وقوله (وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ، ويعلم مافى البر والبحر وماتسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولايابس إلا فى كتاب مبين)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

يخبر تعالى عن قدرته على كل شىء وأنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك كما قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن جامع بن شداد عن صفوان بن محرز عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ « اقبلوا البشرى يابنى تميم » قالوا قد بشرتنا فأعطنا ، قال « اقبلوا البشرى ياأهل اليمن » قالوا قد قبلنا . فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان ؟ قال « كان الله قبل كل شىء ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى اللوح المحفوظ ذكر كل شىء » قال : فأتانى آت فقال ياعمران انحلت ناقتك من عقالها ، قال فخرجت فى إثرها فلاأدرى ما كان بعدى ، وهذا الحديث مخرج فى صحيحى البخارى ومسلم بألفاظ كثيرة فمنها قالوا جئناك نسألك عن أول هذا الأمر فقال « كان الله ولم يكن شىء قبله - وفى رواية غيره - وفى رواية معه - وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شىء ، ثم خلق السموات والأرض » وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء » وقال البخارى فى تفسير هذه الآية : حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب أخبرنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « قال الله عز وجل أنفق أنفق عليك » وقال « يدالله ملأى لايغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار » وقال « أفرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فانه لم يغض ما فى يمينه وكان عرشه على الماء ، وبيده الميزان يخفض ويرفع »

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا حماد بن سلمة عن يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدس عن عمه أبى رزين واسمه لقيط بن عامر بن المنفق العقيلى قال : قلت يارسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه قال « كان فى عماء ماتحته هواء ومافوقه هواء ، ثم خلق العرش بعد ذلك » وقد رواه الترمذى فى التفسير وابن ماجه فى السنن من حديث يزيد بن هرون به وقال الترمذى هذا حديث حسن ، وقال مجاهد (وكان عرشه على الماء) قبل أن يخلق شيئا ، وكذا قال وهب بن منبه وضمرة وقتادة وابن جرير وغير واحد ، وقال قتادة فى قوله (وكان عرشه على الماء) ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض ، وقال الربيع بن أنس (وكان عرشه على الماء) فلما خلق السموات والأرض قسم ذلك الماء قسمين فجعل نصفاً تحت العرش وهو البحر المسجور . وقال ابن عباس إنما سمى العرش عرشا لارتفاعه ، وقال إسماعيل بن أبى خالد سمعت سعداً الطائى يقول : العرش ياقوتة حمراء ، وقال محمد بن إسحق فى قوله تعالى (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء) فكان كما وصف نفسه تعالى إذ ليس إلا الماء وعليه العرش وعلى العرش ذو الجلال والاكرام ، والعزة والسلطان ، والملك والقدرة ، والحلم والعلم ، والرحمة والنعمة الفعال لما يريد ؛ وقال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير قال : سئل ابن عباس عن قول الله (وكان عرشه على الماء) على أى شىء كان الماء ؟ قال على متن الريح ، وقوله تعالى (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) أى خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه ولا يشركوا به شيئا ولم يخلق ذلك عبثا كقوله (وماخلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) وقال تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون

تعالى الله الملك الحى لا إله إلا هو رب العرش الكريم)وقال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) الآية وقوله (ليبلوكم) أى ليختبركم (أيكم أحسن عملا) ولم يقل أكثر عملا ، بل أحسن عملا ولا يكون العمل حسنا حتى يكون خالصا لله عزوجل على شريعة رسول الله ﷺ فمتى فقد العمل واحدا من هذين الشرطين حبط وبطل . وقوله (ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت) الآية يقول تعالى ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذى خلق السموات والأرض كما قال تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة الذى هو بالنسبه إلى القدرة أهون من البداءة كما قال تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) وقال تعالى (ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) وقولهم (إن هذا إلا سحر مبين) أى يقولون كفرا وعنادا مانصدقك على وقوع البعث ، وما يذكر ذلك إلا من سحرته فهو يتبعك على ماتقول ، وقوله (ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة) الآية . يقول تعالى ولئن أخرنا العذاب والمؤاخذة عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور وأوعدناهم إلى مدة مضروبة ليقولن تكذيبا واستعجالا : مايحبسه أى يؤخر هذا العذاب عنا فان سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد والأمة تستعمل فى القرآن والسنة فى معان متعددة فيراد بها الأمد كقوله فى هذه الآية (إلى أمة معدودة) وقوله فى يوسف (وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة) وتستعمل فى الإمام المقتدى به كقوله (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين) وتستعمل فى الملة والدين كقوله اخبارا عن المشركين إنهم قالوا (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) وتستعمل فى الجماعة كقوله (ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون) وقوله (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال تعالى (ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) والمراد من الأمة ههنا الذين يبعث فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم كما فى صحيح مسلم « والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى لا يؤمن بى إلا دخل النار » وأما أمة الأتباع فهم المصدقون للرسل كما قال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وفى الصحيح « فأقول أمتى أمتى » وتستعمل الأمة فى الفرقة والطائفة كقوله تعالى (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) وكقوله (من أهل الكتاب أمة قائمة) الآية

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

يخبر تعالى عن الانسان ومافيه من الصفات الذميمة إلا من رحم الله من عباده المؤمنين أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل وكفر وجحود لماضى الحال كأنه لم ير خيرا ولم يرج بعد ذلك فرجا . وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة (ليقولن ذهب السيئات عنى) أى يقول ماينالنى بعد هذا ضيم ولا سوء (إنه لفرح فخور) أى فرح بما فى يده بطر فخور على غيره ، قال الله تعالى (إلا الذين صبروا) أى على الشدائد والمكاره (وعملوا الصالحات) أى فى الرخاء والعافية (أولئك لهم مغفرة) أى بما يصيبهم من الضراء (وأجر كبير) بما أسلفوه فى زمن الرخاء كما جاء فى الحديث « والذى نفسى بيده لا يصيب المؤمن هم ولا غم ولا نصب ولا وصب ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياه » وفى الصحيحين « والذى نفسى بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له ، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له ، وليس ذلك لأحد غير المؤمن » ولهذا قال الله تعالى (والعصر إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر

وقال تعالى (إن الإنسان خلق هلوعا) الآيات

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

يقول تعالى مسليا لرسوله ﷺ عما كان يتعنت به المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول كما أخبر تعالى عنهم فى قوله (وقالوا مالهذا الرسول يأ كل الطعام ويمشى فى الأسوق ؟ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا * أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأ كل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً) فأمر الله تعالى رسوله صلوات الله تعالى وسلامه عليه وأرشده إلى أن لا يضيق بذلك منهم صدره ولا يصدنه ذلك ولا يثنينه عن دعائهم إلى الله عزوجل آناء الليل وأطراف النهار كما قال تعالى (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) الآية ، وقال ههنا (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا) أى لقولهم ذلك فانما أنت نذير ولك أسوة باخوانك من الرسل قبلك فانهم كذبوا وأوذوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله عزوجل ، ثم بين تعالى إعجاز القرآن وأنه لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله ولا بعشر سور مثله ، ولا بسورة من مثله لأن كلام الرب تعالى لا يشبه كلام المخلوقين كما أن صفاته لاتشبه صفات المحدثات . وذاته لايشبهها شىء تعالى وتقدس وتنزه لا إله إلا هو ولارب سواه ثم قال تعالى (فان لم يستجيبوا لكم) أى فان لم يأتوا بمعارضة مادعوتموهم إليه فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك ، وأن هذا الكلام منزل من عند الله متضمن علمه وأمره ونهيه (وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون)

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم فى الدنيا وذلك أنهم لا يظلمون نقيرا يقول من عمل صالحا التماس الدنيا صوما أو صلاة أو تهجدا بالليل لا بعمله إلا التماس الدنيا يقول الله تعالى : أوفيه الذى التمس فى الدنيا من المثابة وحبط عمله الذى كان يعمله لا لتماس الدنيا وهو فى الآخرة من الخاسرين : وهكذا روى عن مجاهد والضحاك وغير واحد ، وقال أنس بن مالك والحسن: نزلت فى اليهود والنصارى ، وقال مجاهد وغيره: نزلت فى أهل الرياء ، وقال قتادة من كانت الدنيا همه ونيته وطلبته جازاه الله بحسناته فى الدنيا ثم يفضى إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء وأما المؤمن فيجازى بحسناته فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة ، وقد ورد فى الحديث المرفوع نحو من هذا ، وقال تعالى (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا * كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا * انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) وقال تعالى (من كان يريد حرث الآخرة نزدله فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب)

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَٰبُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التى فطر عليها عباده من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو كما قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها) الآية وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ » الحديث . وفى صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله تعالى إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطانا » وفى المسند والسنن « كل مولود يولد على هذه الملة حتى يعرب عنه لسانه » الحديث، فالمؤمن باق على هذه الفطرة ، وقوله (ويتلوه شاهده منه) أى وجاءه شاهد من الله وهو ما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكملة المعظمة المختتمة بشريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . ولهذا قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو العالية والضحاك وإبراهيم النخعى والسدى وغير واحد فى قوله تعالى (ويتلوه شاهد منه) انه جبريل عليه السلام ، وعن على رضى الله عنه والحسن وقتادة هو محمد صلى الله عليه وسلم وكلاهما قريب فى المعنى لأن كلا من جبريل ومحمد صلوات الله عليهما بلغ رسالة الله تعالى فجبريل إلى محمد ومحمد إلى الأمة ، وقيل هو علىّ وهو ضعيف لا يثبت له قائل والأول والثانى هو الحق ، وذلك أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة والتفاصيل تؤخذ من الشريعة والفطرة تصدقها وتؤمن بها ، ولهذا قال تعالى (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه) وهو القرآن بلغه جبريل إلى النبى ﷺ وبلغه النبى محمد صلى الله عليه وسلم إلى أمته ، ثم قال تعالى (ومن قبله كتاب موسى) أى ومن قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة (إماما ورحمة) أى أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماما لهم وقدوة يقتدون بها ورحمة من الله بهم فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن ، ولهذا قال تعالى (أولئك يؤمنون به) ثم قال تعالى متوعدا لمن كذب بالقرآن أو بشىء منه (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) أى ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بنى آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ممن بلغه القرآن كما قال تعالى (لأنذركم به ومن بلغ) وقال تعالى (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا) وقال تعالى (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده). وفى صحيح مسلم من حديث شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار » وقال أيوب السختيانى عن سعيد ابن جبير قال : كنت لا أسمع بحديث عن النبى الله صلى الله عليه وسلم على وجهه إلا وجدت مصداقه أو قال تصديقه فى القرآن فبلغنى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى فلا يؤمن بى إلا دخل النار » فجعلت أقول أين مصداقه فى كتاب الله ؟ قال وقلما سمعت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وجدت له تصديقا فى القرآن حتى وجدت هذه الآية (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) قال من الملل كلها وقوله (فلا تك فى مرية منه إنه الحق من ربك) الآية ، أى القرآن حق من الله لا مرية ولا شك فيه كما قال تعالى (الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) وقال تعالى (الم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه) وقوله (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) كقوله تعالى (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وقال تعالى (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) وقال تعالى (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين)

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ

كَفَرُونَ * أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾

يبين تعالى حال المفترين عليه وفضيحتهم فى الدار الآخرة على رءوس الخلائق من الملائكة والرسل والأنبياء وسائر البشر والجان كما قال الإمام أحمد حدثنا بهز وعفان قالا أخبرنا همام حدثنا قتادة عن صفوان بن محرز قال : كنت آخذاً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل قال كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى يوم القيامة ، قال سمعته يقول « إن الله عزوجل يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال فانى قد سترتها عليك فى الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول (الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين) » الآية أخرجه البخارى ومسلم فى الصحيحين من حديث قتادة به وقوله (الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا) أى يردون الناس عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عزوجل ويجنبونهم الجنة (ويبغونها عوجا) أى ويريدون أن يكون طريقهم عوجا غير معتدلة (وهم بالآخرة هم كافرون) أى جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها (أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء) أى بل كانوا تحت قهره وغلبته وفى قبضته وسلطانه وهو قادر على الانتقام منهم فى الدار الدنيا قبل الآخرة (ولكن يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) وفى الصحيحين « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ولهذا قال تعالى (يضاعف لهم العذاب) الآية أى يضاعف عليهم العذاب ، وذلك أن الله تعالى جعل لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم بل كانوا صما عن سماع الحق عميا عن اتباعه كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار كقوله (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) وقال تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب) الآية ، ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه وعلى كل نهى ارتكبوه ولهذا كان أصح الأقوال أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة وقوله (أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى خسروا أنفسهم لأنهم أدخلوا نارا حامية فهم معذبون فيها لا يفتر عنهم من عذابها طرفة عين كما قال تعالى (كلما خبت زدناهم سعيرا) (وضل عنهم) أى ذهب عنهم (ما كانوا يفترون) من دون الله من الأنداد والأصنام فلم تجد عنهم شيئا بل ضرتهم كل الضرر كما قال تعالى (وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وقال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا) وقال الخليل لقومه (إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) وقوله (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسرهم ودمارهم ولهذا قال (لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون) يخبر تعالى عن مآلهم أنهم أخسر الناس صفقة فى الدار الآخرة لأنهم استبدلوا الدركات عن الدرجات ، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن وعن شرب الرحيق المختوم . بسموم وحميم وظل من يحموم وعن الحور العين بطعام من غسلين وعن القصور العالية بالهاوية ، وعن قرب الرحمن ، ورؤيته بغضب الديان وعقوبته ، فلا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات فآمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولا وفعلا من الإتيان بالطاعات وترك المنكرات وبهذا ورثوا الجنات ، المشتملة على الغرف العاليات ، والسرر المصفوفات ، والقطوف الدانيات ، والفرش المرتفعات والحسان الخيرات ، والفواكه المتنوعات ، والمآكل المشتهيات ، والمشارب المستلذات ، والنظر إلى خالق الأرض والسموات ، وهم فى ذلك خالدون لايموتون ولا يهرمون ولا يمرضون وينامون ولايتغوطون ولايبصقون ولايتمخطون ، إنهو إلارشح مسك يعرقون ؛ ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال (مثل الفريقين) أى الذين وصفهم أولا بالشقاء والمؤمنين بالسعادة فأولئك كالأعمى والأصم وهؤلاء كالبصير والسميع ، فالكافر أعمى عن وجه الحق فى الدنيا والآخرة لايهتدى إلى خير ولا يعرفه ، أصم عن سماع الحجج فلا يسمع ماينتفع به (ولوعلم الله فيهم خيراً لأسمعهم) الآية ، وأما المؤمن ففطن ذكى لبيب بصير بالحق يميز بينه وبين الباطل فيتبع الخير ويترك الشر سميع للحجة يفرق بينها وبين الشبهة فلا يروج عليه باطل ، فهل يستوى هذا وهذا ؟ (أفلاتذكرون) أفلا تعتبرون فتفرقون بين هؤلاء وهؤلا كما قال فى الآية الأخرى (لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون) وكقوله (وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور * إن أنت إلا نذير إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلاخلا فيها نذير)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام أنه قال لقومه (إنى لكم نذير مبين) أى ظاهر النذارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله ، ولهذا قال (أن لاتعبدوا إلا الله) وقوله (إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) أى إن استمررتم على ماأنتم عليه عذبكم الله عذابا أليما موجعا شاقا فى الدار الآخرة (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) والملأ هم السادة والكبراء من الكافرين منهم (مانراك إلا بشرا مثلنا) أى لست بملك ولكنك بشر فكيف أوحى إليك من دوننا ثم مانراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تروٍ منهم ولافكر ولا نظر بل بمجرد مادعوتهم أجابوك فاتبعوك ولهذا قالوا (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى) أى فى أول بادىء (وما نرى لكم علينا من فضل) يقولون مارأينا لكم علينا فضيلة فى خلق ولاخلق ولا رزق ولاحال لما دخلتم فى دينكم هذا (بل نظنكم كاذبين) أى فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة والسعادة فى الدار الآخرة إذ صرتم إليها ، هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم فانه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه ، فان الحق فى نفسه صحيح سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل بل الحق الذى لاشك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء ثم الواقع غالبا أن مايتبع الحق ضعفاء الناس ، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته كما قال تعالى و (وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبى صلى الله عليه وسلم قال له فيما قال : أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم ؟ قال بل ضعفاؤهم . فقال هرقل هم أتباع الرسل ، وقولهم بادى الرأى ليس بمذمة ولاعيب لأن الحق إذا وضح لايبقى للرأى ولاللفكر مجال بل لابد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذى لب وذكاء بل لايفكر فيها إلا غبى أوعى ، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

إنما جاءوا بأمر جلى واضح . وقد جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال « ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر فانه لم يتعلثم » أى ما تردد ولا تروى لأنه رأى أمرا جليا عظيما واضحا فبادر إليه وسارع وقوله: وما نرى لكم علينا من فضل هم لا يرون ذلك لأنهم عمى عن الحق لا يسمعون ولا يبصرون بل هم فى ريبهم يترددون فى ظلمات الجهل يعمهون وهم الأفاكون الكاذبون الأقلون الأرذلون وفى الآخرة هم الأخسرون

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عما رد به نوح على قومه فى ذلك (أرأيتم إن كنت على بينة من ربى) أى على يقين وأمر جلى ونبوة صادقة وهى الرحمة العظيمة من الله به وبهم (فعميت عليكم) أى خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها ولا عرفتم قدرها بل بادرتم إلى تكذيبها وردها (أنلزمكموها) أى نغصبكم بقبولها وأنتم لها كارهون .

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

يقول لقومه لا أسألكم على نصحى لكم مالا: أجرة آخذها منكم إنما أبتغى الأجر من الله عز وجل (وما أنا بطارد الذين آمنوا) كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه احتشاما ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلسا خاصا فأنزل الله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) الآية وقال تعالى (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ أليس الله بأعلم بالشاكرين) الآية

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

يخبرهم أنه رسول من الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له بإذن الله له فى ذلك ولا يسألهم على ذلك أجرا بل هو يدعو من لقيه من شريف ووضيع فمن استجاب له فقد نجا ويخبرهم أنه لا قدرة له على التصرف فى خزائن الله ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه وليس هو بملك من الملائكة بل هو بشر مرسل مؤيد بالمعجزات ولا أقول عن هؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم أنهم ليس لهم عند الله ثواب على أعمالهم الله أعلم بما فى أنفسهم فان كانوا مؤمنين باطنا كما هو الظاهر من حالهم فلهم جزاء الحسنى ولو قطع لهم أحد بشر بعد ما آمنوا لكان ظالما قائلا مالا علم له به

﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ * وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه ، والبلاء موكل بالمنطق . (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا) أى حاججتنا فأكثرت من ذلك ونحن لا نتبعك (فأتنا بما تعدنا) أى من النقمة والعذاب

ادع علينا بما شئت فليأتنا ما تدعو به (إن كنت من الصادقين قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين) أى إنما الذي يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذى لا يعجزه شىء (ولا ينفعكم نصحى أن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم) أى أى شىء يجدى عليكم إبلاغى لكم وإنذارى إياكم ونصحى (ان كان الله يريد أن يغويكم) أى اغواءكم ودماركم (هو ربكم وإليه ترجعون) أى هو مالك أزمة الأمور المتصرف الحاكم العادل الذى لا يجور، له الخلق وله الأمر وهو المبدىء المعيد مالك الدنيا والآخرة

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾

هذا كلام معترض فى وسط هذه القصة مؤكد لها . مقرر لها يقول تعالى لمحمد ﷺ أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون افترى هذا وافتعله من عنده (قل إن افتريته فعلى إجرامى) أى قائم ذلك على (وأنا برىء مما تجرمون) أى ليس ذلك مفتعلا ولا مفترى لأنى أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه .

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نقمه الله بهم وعذابه لهم فدعا عليهم نوح دعوته التى قال الله تعالى مخبرا عنه أنه قال (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) (فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر) فعند ذلك أوحى الله إليه (أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) فلا تحزن عليهم ولا يهمنك أمرهم (واصنع الفلك) يعنى السفينة (بأعيننا)أى بمرأى منا (ووحينا) أى تعليمنا لك ما تصنعه (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) فقال بعض السلف أمره الله تعالى أن يغرز الخشب ويقطعه ويبسه فكان ذلك فى مائة سنة ونجرها فى مائة سنة أخرى وقيل فى أربعين سنة والله أعلم ، وذكر محمد بن إسحق عن التوراة أن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج وأن يجعل طولها ثمانين ذراعا وعرضها خمسين ذراعا وأن يطلى باطنها وظاهرها بالقار وأن يجعل لها جؤجؤا أزورا يشق الماء ، وقال قتادة كان طولها ثلثمائة ذراع فى عرض خمسين وعن الحسن طولها ستمائة ذراع وعرضها ثلثمائة وعنه مع ابن عباس طولها ألف ومائتا ذراع فى عرض ستمائة وقيل طولها ألفا ذراع وعرضها مائة ذراع فالله أعلم ، قالوا كلهم وكان ارتفاعها فى السماء ثلاثين ذراعا ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع فالسفلى للدواب والوحوش والوسطى للانس والعليا للطيور وكان بابها فى عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها ، وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير أثرا غريبا من حديث على بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن عبد الله بن عباس أنه قال : قال الحواريون لعيسى بن مريم لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة فحدثنا عنها قال فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب فأخذ كفا من ذلك التراب بكفه فقال أتدرون ما هذا ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال هذا كعب حام بن نوح . قال فضرب الكثيب بعصاه قال قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب قال له عيسى عليه السلام أهكذا هلكت ؟ قال لا . ولكنى مت وأنا شاب ولكنى ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت ، قال حدثنا عن سفينة نوح ؟ قال كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات فطبقة فيها الدواب والوحوش وطبقة فيها الإنس وطبقة فيها الطير فلما كثر روث الدواب أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه

فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث فلما وقع الفأر بجوف السفينة يقرضها وحبالها أوحى الله إليه أن اضرب بين عيني الأسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفأر ، فقال له عيسى عليه السلام كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت ؟ قال بعث الغراب يأتية بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها فدعا عليه بالخوف فلذلك لا يألف البيوت. قال ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجلها فعلم أن البلاد قد غرقت قال فطوقها الحصرة التى فى عنقها ودعا لها أن تكون فى أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت قال فقلنا يا رسول الله ألا ننطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا ؟ قال كيف يتبعكم من لا رزق له ؟ قال فقال له عد بإذن الله فعاد ترابا ، وقوله (ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) أى يهزءون به ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق (قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم) الآيه وعيد شديد وتهديد أكيد (من يأتيه عذاب يخزيه) أى يهينه فى الدنيا (ويحل عليه عذاب مقيم) أى دائم مستمر أبدا.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

هذه موعدة من الله تعالى لنوح عليه السلام إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة والهتان الذى لا يقلع ولا يفتر ، بل هو كما قال تعالى (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر) وأما قوله (وفار التنور) فعن ابن عباس التنور وجه الأرض ، أى صارت الأرض عيونا تفور حتى فار الماء من التنانير التى هى مكان النار صارت تفور ماء وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف ، وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه التنور فلق الصبح وتنوير الفجر وهو ضياؤه وإشراقه والأول أظهر وقال مجاهد والشعبى كان هذا التنور بالكوفة، وعن ابن عباس عين بالهند ، وعن قتادة عين بالجزيرة يقال لها عين الوردة وهذه أقوال غريبة فحينئذ أمر الله نوحا عليه السلام أن يحمل معه فى السفينة من كل زوجين اثنين من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح ، قيل وغيرها من النباتات اثنين ذكراً وأنثى فقيل كان أول من أدخل من الطيور الدرة وآخر من أدخل من الحيوانات الحمار فتعلق إبليس بذنبه وجعل يريد أن ينهض فيثقله إبليس وهو متعلق بذنبه فجعل يقول له نوح عليه السلام : مالك ويحك ادخل فينهض ولا يقدر فقال : ادخل وإن كان إبليس معك فدخلا فى السفينة ، وذكر بعض السلف أنهم لم يستطيعوا أن يحملوا معهم الأسد حتى ألقيت عليه الحمى .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث حدثنى الليث حدثنى هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال « لما حمل نوح فى السفينة من كل زوجين اثنين قال أصحابه وكيف تطمئن المواشى ومعها الأسد ؟ فسلط الله عليه الحمى فكانت أول حمى نزلت فى الأرض ثم شكوا الفأرة فقالوا الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا فأوحى الله إلى الأسد فعطس فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها . وقوله (وأهلك إلا من سبق عليه القول) أى واحمل فيها أهلك وهم أهل بيته وقرابته إلا من سبق عليه القول منهم ممن لم يؤمن بالله فكان منهم ابنه يام الذى انعزل وحده وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله ، وقوله (ومن آمن) أى من قومك (وما آمن معه إلا قليل) أى نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، فعن ابن عباس كانوا ثمانين نفسا منهم نساؤهم ، وعن كعب الأحبار كانوا اثنين وسبعين نفسا . وقيل كانوا عشرة ، وقيل إنما كان نوح وبنوه الثلاثة سام وحام ويافث وكنائنه الأربع نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام ، وقيل بل امرأة نوح كانت معهم فى السفينة وهذا فيه نظر ، بل الظاهر أنها هلكت لأنها كانت على دين قومها فأصابها ما أصابهم كما أصاب امرأة لوط ما أصاب قومها والله أعلم وأحكم :

﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ

وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ * قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾

يقول تعالى إخبار عن نوح عليه السلام أنه قال للذين أمر بحملهم معه فى السفينة (اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها) أى بسم الله يكون جريها على وجهه الماء ، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوها ، وقرأ أبو رجاء العطاردى (بسم الله مجريها ومرسيها) وقال الله تعالى (فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) ولهذا تستحب التسمية فى ابتداء الأمور عند الركوب على السفينة وعلى الدابة كما قال تعالى (والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون لتستووا على ظهوره) الآية ، وجاءت السنة بالحث على ذلك والندب إليه كما سيأتى فى سورة الزخرف إن شاء الله وبه الثقة وقال أبو القاسم الطبرانى حدثنا إبراهيم بن هاشم البغوى حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمى وحدثنا زكريا بن يحيى الساجى حدثنا محمد بن موسى الحرشى قالا حدثنا عبد الحميد بن الحسن الهلالى عن نهشل بن سعيد عن الضحاك عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال « أمان أمتى من الغرق إذا ركبوا فى السفن أن يقولوا بسم الله الملك (وما قدروا الله حق قدره) ـ الآية ـ (بسم الله مجريها ومرساها أن ربى لغفور رحيم) » وقوله (إن ربى لغفور رحيم) مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين فذكر أنه غفور رحيم كقوله (إن ربك لسريع العقاب * وإنه لغفور رحيم) وقال (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب) إلى غير ذلك من الآيات التى يقرن فيها بين رحمته وانتقامه وقوله (وهى تجرى بهم فى موج كالجبال) أى السفينة سائرة بهم على وجه الماء الذى قد طبق جميع الأرض حتى طفت على رءوس الجبال وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعا وقيل بثمانين ميلا ، وهذه السفينة جارية على وجه الماء سائرة بأذن الله وتحت كنفه وعنايته وحراسته وامتنانه كما قال تعالى (إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) وقال تعالى (وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر * ولقد تركناها آية فهل من مدكر) وقوله (ونادى نوح ابنه) الآية ، هذا هو الابن الرابع واسمه يام وكان كافرا دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون (قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء) وقيل إنه اتخذ له مركبا من زجاج وهذا من الاسرائيليات والله أعلم بصحته ، والذى نص عليه القرآن أنه قال (سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء) اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رءوس الجبال ، وأنه لو تعلق فى رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق ، فقال له أبوه نوح عليه السلام (لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) أى ليس شىء يعصم اليوم من أمر الله . وقيل إن عاصما بمعنى معصوم كما يقال طاعم وكاس بمعنى مطعوم ومكسو (وحال بينهما الموج فكان من المغرقين)

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

يخبر تعالى أنه لما أغرق أهل الأرض كلهم الا أصحاب السفينة أمر الأرض أن تبلع ماءها الذى نبع منها واجتمع عليها ، وأمر السماء أن تقلع عن المطر (وغيض الماء) أى شرع فى النقص (وقضى الأمر) أى فرغ من أهل الأرض قاطبة ممن كفر بالله لم يبق منهم ديار (واستوت) السفينة بمن فيها (على الجودى) قال مجاهد وهو جبل بالجزيرة تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت وتواضع هو لله عزوجل فلم يغرق وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام وقال قتادة استوت عليه شهرا حتى نزلوا منها ، قال قتادة . قد أبقى الله سفينة نوح عليه السلام على الجودى من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت وصارت رماداً

وقال الضحاك : الجودى جبل بالموصل وقال بعضهم : هو الطور ، وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا عمرو بن رافع حدثنا محمد بن عبيد عن توبة بن سالم قال رأيت زر بن حبيش يصلى فى الزاوية حين يدخل من أبواب كندة على يمينك فسألته إنك لكثير الصلاة ههنا يوم الجمعة قال بلغنى أن سفينة نوح أرست من ههنا . وقال علباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان مع نوح فى السفينة ثمانون رجلا معهم أهلوهم وإنهم كانوا فيها مائة وخمسين يوما وإن الله وجه السفينة إلى مكة فطافت بالبيت أربعين يوما ثم وجهها الله إلى الجودى فاستقرت عليه فبعث نوح الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب فوقع على الجيف فأبطأ عليه فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون فلطخت رجليها بالطين فعرف نوح عليه السلام أن الماء قد نضب فهبط إلى أسفل الجودى فابتنى قرية وسماها ثمانين فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة إحداها اللسان العربى ، فكان بعضهم لا يفقه كلام بعض فكان نوح عليه السلام يعبر عنهم . وقال كعب الأحبار : إن السفينة طافت ما بين المشرق والمغرب قبل أن تستقر على الجودى ، وقال قتادة وغيره ركبوا فى عاشر شهر رجب فساروا مائة وخمسين يوما واستقرت بهم على الجودى شهراً وكان خروجهم من السفينة فى يوم عاشوراء من المحرم ، وقد ورد نحو هذا فى حديث مرفوع رواه ابن جرير وأنهم صاموا يومهم ذلك والله أعلم .

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو جعفر حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدى عن أبيه حبيب بن عبد الله عن شبل عن أبى هريرة قال : مر النبى ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء فقال « ماهذا الصوم ؟ » قالوا هذا اليوم الذى نجى الله به موسى وبنى إسرائيل من الغرق وغرق فيه فرعون وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودى فصام نوح وموسى عليهما السلام شكرا لله عز وجل : فقال النبى صلى الله عليه وسلم « أنا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم » فصام وقال لأصحابه « من كان أصبح منكم صائما فليتم صومه ، ومن كان أصاب من غذاء أهله فليتم بقية يومه » وهذا حديث غريب من هذا الوجه ولبعضه شاهد فى الصحيح ، وقوله (وقيل بعدا للقوم الظالمين) أى هلاكا وخسارا لهم وبعدا من رحمة الله فانهم قد هلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية ، وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير والحبر أبو محمد بن أبى حاتم فى تفسيريهما من حديث يعقوب بن موسى الزمعى عن قائد مولى عبيد الله بن أبى رافع أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبى ربيعة أخبره أن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أخبرته أن النبى ﷺ قال « لو رحم الله من قوم نوح أحدا لرحم أم الصبى » قال رسول الله ﷺ « كان نوح عليه السلام مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يعنى وغرس مائة سنة الشجر فعظمت وذهبت كل مذهب ثم قطعها ثم جعلها سفينة ويمرون عليه ويسخرون منه ويقولون تعمل سفينة فى البر فكيف تجرى ؟ قال سوف تعلمون فلما فرغ ونبع الماء وصار فى السكك خشيت أم الصبى عليه وكانت تحبه حبا شديدا فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها فغرقا ، فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبى » وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، وقد روى عن كعب الأحبار ومجاهد ابن جبير قصة هذا الصبى وأمه بنحو من هذا

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

هذا سؤال استلام وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذى غرق (قال رب إن ابنى من أهلى) أى وقد وعدتنى بنجاة أهلى ووعدك الحق الذى لا يخلف فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين (قال يانوح إنه ليس من أهلك) أى الذين وعدت إنجاءهم لأنى إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك ، ولهذا قال (وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم) فكان هذا

الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحا عليه السلام ، وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب فى تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه وإنما كان ابن زنية ، ويحكى القول بأنه ليس بابنه وإنما كان ابن امرأته عن مجاهد والحسن وعبيد بن عمير وأبى جعفر الباقر وابن جريج واحتج بعضهم بقوله (إنه عمل غير صالح) وبقوله (فخانتاهما) فممن قاله الحسن البصرى احتج بهاتين الآيتين وبعضهم يقول ابن امرأته وهذا يحتمل أن يكون أراد ما أراد الحسن أو أراد أنه نسب إليه مجازا لكونه كان ربيبا عنده فالله أعلم . وقال ابن عباس وغير واحد من السلف مازنت امرأة نبى قط قال: وقوله (إنه ليس من أهلك) أى الذين وعدتك نجاتهم ، وقول ابن عباس فى هذا هو الحق الذى لامحيد عنه فان الله سبحانه أغير من أن يمكن امرأة نبى من الفاحشة ولهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبى ﷺ وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه ولهذا قال تعالى (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لاتحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم * لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴿ إلى قوله ﴾ إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم) وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة وغيره عن عكرمة عن ابن عباس قال : هو ابنه غير أنه خالفه فى العمل والنية قال عكرمة فى بعض الحروف إنه عمل عملا غير صالح ، والخيانة تكون على غير باب ، وقد ورد فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بذلك فقال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هرون حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ (إنه عمل غير صالح) وسمعته يقول (ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقطنوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) ولايبالى (إنه هو الغفور الرحيم) وقال أحمد أيضا حدثنا وكيع حدثنا هرون النحوى عن ثابت البنانى عن شهر بن حوشب عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قرأها (إنه عمل غير صالح) أعاده أحمد أيضا فى مسنده ، أم سلمة هى أم المؤمنين والظاهر والله أعلم أنها أسماء بنت يزيد فانها تكنى بذلك أيضا . وقال عبد الرزاق أيضا أنا الثورى عن ابن عيينة عن موسى ابن أبى عائشة عن سليمان بن قبة قال سمعت ابن عباس سئل وهو إلى جنب الكعبة عن قول الله (فخانتاهما) قال أما إنه لم يكن بالزنا ولكن كانت هذه تحبر الناس أنه مجنون ، وكانت هذه تدل على الأضياف ثم قرأ (إنه عمل غير صالح) قال ابن عيينة وأخبرنى عمار الدهبى أنه سأل سعيد بن جبير عن ذلك فقال : كان ابن نوح إن الله لا يكذب . قال تعالى (ونادى نوح ابنه) قال وقال بعض العلماء مافجرت امرأة نبى قط . وكذا روى عن مجاهد أيضا وعكرمة والضحاك وميمون بن مهران وثابت بن الحجاج وهو اختيار أبى جعفر بن جرير وهو الصواب الذى لاشك فيه

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يخبر تعالى عما قيل لنوح عليه السلام حين أرست السفينة على الجودى من السلام عليه وعلى من معه من المؤمنين وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة كما قال محمد بن كعب دخل فى هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة وكذلك فى العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة وقال محمد بن إسحق لما أراد الله أن يكف الطوفان أرسل ريحا على وجه الأرض فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض الغمر الأكبر وأبواب السماء يقول الله تعالى (وقيل يا أرض ابلعى ماءك) الآية فجعل الماء ينقص ويغيض ويدير وكان استواء الفلك على الجودى فيما يزعم أهل التوراة فى الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه وفى أول يوم من الشهر العاشر رأى رؤوس الجبال فلما مضى بعد ذلك أربعون يوما فتح نوح كوة الفلك التى ركب فيها ثم أرسل الغراب لينظر له ماصنع الماء فلم يرجع اليه فأرسل الحمامة فرجعت اليه لم تجد لرجليها موضعا فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها ثم مضى سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له فرجعت حين أمست وفى فمها ورق ريتون فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها

فلم ترجع فعلم نوح أن الأرض قد برزت فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنتين برز وجه الأرض وظهر البر وكشف نوح عطاء الفلك وفى الشهر الثانى من سنة اثنتين فى ست وعشرين ليلة منه (قيل يا نوح اهبط بسلام منا) الآية

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ هذه القصة وأشباهها (من أنباء الغيب) يعنى من أخبار الغيوب السالفة نوحيها إليك على وجهها كأنك شاهدها نوحيها إليك أى نعلمك بها وحيا منا إليك (ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) أى لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها حتى يقول من يكذبك إنك تعلمتها منه بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك وأذاهم لك فانا سننصرك ونحوطك بعنايتنا ونجعل العاقبة لك ولأتباعك فى الدنيا والآخرة كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا) الآية وقال تعالى (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون) الآية وقال تعالى (فاصبر إن العاقبة للمتقين)

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ * يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾

يقول تعالى (و) لقد أرسلنا (إلى عاد أخاهم هودا) آمرا لهم بعبادة الله وحده لا شريك له ناهيا لهم عن الأوثان التى افتروها واختلفوا لها أسماء الآلهة وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجرة على هذا النصح والبلاغ من الله إنما يبغى ثوابه من الله الذى فطره أفلا تعقلون من يدعوكم إلى ما يصلحكم فى الدنيا والآخرة من غير أجرة ثم أمرهم بالاستغفار الذى فيه تكفير الذنوب السالفة وبالتوبة عما يستقبلون ، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه وسهل عليه أمره وحفظ شأنه ولهذا قال (يرسل السماء عليكم مدرارا) وفى الحديث « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب »

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيهم (ما جئتنا ببينة) أى بحجة وبرهان على ما تدعيه (وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك) أى بمجرد قولك اتركوهم نتركهم (وما نحن لك بمؤمنين) بمصدقين (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) يقولون ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبل فى عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها (قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه) يقول إنى برىء من جميع الأنداد والأصنام (فكيدونى جميعا) أى أنتم وآلهتكم إن كانت حقا (ثم لا تنظرون) أى طرفة عين وقوله (إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها) أى

تحت قهره وسلطانه وهو الحاكم العادل الذى لا يجور فى حكمه فانه على صراط مستقيم قال الوليد بن مسلم عن صفوان ابن عمرو عن أيفع بن عبد الكلاعى أنه قال فى قوله تعالى (ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم) قال فيأخذ بنواصى عباده فيلقن المؤمن حتى يكون له أشفق من الوالد لولده ويقول (ما غرك بربك الكريم) وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به وبطلان ماهم عليه من عبادة الأصنام التى لاتنفع ولا تضر بل هى جماد لا تسمع ولا تبصر ولا توالى ولا تعادى وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له الذى بيده الملك وله التصرف وما من شىء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه فلا إله إلا هو ولا رب سواه

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِئَايَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُوا فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾

يقول لهم هود فإن تولوا عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له فقد قامت عليكم الحجة بالبلاغى إياكم رسالة الله التى بعثنى بها (ويستخلف ربى قوما غيركم)يعبدونه وحده لا يشركون به ولا يبالى بكم فانكم لا تضرونه بكفركم بل يعود وبال ذلك عليكم (إن ربى على كل شىء حفيظ) أى شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ومجزيهم عليها إن خير فخيرا وإن شرا فشر (ولما جاء أمرنا) وهو الريح العقيم فأهلكهم الله عن آخرهم ونجى هودا وأتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه (وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم) كفروا بها وعصوا رسل الله وذلك أن من كفر بنبى فقد كفر بجميع الأنبياء لأنه لا فرق بين أحد منهم فى وجوب الإيمان به فعاد كفروا بهود فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) تركوا اتباع رسولهم الرشيد ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، فلهذا أتبعوا فى هذه الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا وينادى عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد (ألا إن عادا كفروا ربهم) الآية قال السدى ما بعث نبى بعد عاد إلا لعنوا على لسانه

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾

يقول تعالى (و)لقد أرسلنا (إلى ثمود) وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينه وكانوا بعد عاد فبعث الله منهم (أخاهم صالحا) فأمرهم بعبادة الله وحده ولهذا قال (هو أنشأكم من الأرض) أى ابتدأ خلقكم منها خلق منها أباكم آدم (واستعمركم فيها) أى جعلكم عمارا تعمرونها وتسغلونها (فاستغفروه) لسالف ذنوبكم (ثم توبوا إليه) فيما تستقبلونه (إن ربى قريب مجيب) كما قال تعالى (وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) الآية

﴿ قَالُوا يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَىٰنَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح عليه السلام وبين قومه وما كان عليه قومه من الجهل والعناد فى قولهم (قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) أى كنا نرجوك فى عقلك قبل أن تقول ما قلت (أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا) وما كان عليه أسلافنا (وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب) أى شك كثير (قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته) وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده ، فلو تركته لما نفعتمونى ولما زدتمونى (غير تخسير) أى خسارة .

﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ * فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ * وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾

تقدم الكلام على هذه القصة مستوفى فى سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته هاهنا وبالله التوفيق .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَىٰٓ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ * وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾

يقول تعالى (ولما جاءت رسلنا) وهم الملائكة إبراهيم بالبشرى قيل تبشره باسحق وقيل بهلاك قوم لوط ويشهد للاول قوله تعالى (ولما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط) (قالوا سلاما قال سلام) أى عليكم قال علماء البيان : هذا أحسن مما حيوه به لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام (فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) أى ذهب سريعا فأتاهم بالضيافة وهو عجل فتى البقر : حنيذ : مشوى على الرضف وهى الحجارة المحماة . هذا معنى ماروى عن ابن عباس وقتادة وغير واحد كما قال فى الآية الأخرى (فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون) وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة وقوله (فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم) نكرهم (وأوجس منهم خيفة) وذلك أن الملائكة لا همة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به فارغين عنه بالكلية فعند ذلك نكرهم (وأوجس منهم خفية) قال السدى لما بعث الله الملائكة لقوم لوط أقبلت تمشى فى صور رجال شبان حتى نزلوا على إبراهيم فتضيفوه ، فلما رآهم أجلهم (فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين) فذبحه ثم شواه فى الرضف وأتاهم به فقعد معهم وقامت سارة تخدمهم فذلك حين يقول ـ وامرأته قائمة وهو جالس ـ فى قراءة ابن مسعود (فلما قربه إليهم قال ألا تأكلون ؟) قالوا يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاما إلا بثمن ، قال فان لهذا ثمنا ، قالوا وما ثمنه ؟ قال تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال حق لهذا أن يتخذه ربه خليلا (فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم) يقول فلما رآهم لا يأكلون فزع منهم وأوجس منهم خيفة ، فلما نظرت سارة أنه قد أكرمهم وقامت هى تخدمهم ضحكت وقالت : عجبا لأضيافنا هؤلاء نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم وهم لا يأكلون

طعامنا ! وقال ابن حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا نصر بن على حدثنا نوح بن قيس عن عثمان بن محيصن فى ضيف إبراهيم قال كانو أربعة : جبريل وميكائيل وإسرافيل ورفائيل . قال نوح بن قيس فزعم نوح بن أبى شداد أنهم لما دخلوا على إبراهيم فقرب إليهم العجل مسحه جبريل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه وأم العجل فى الدار ، وقوله تعالى إخبارا عن الملائكة (قالوا لا تخف) أى قالوا لا نخف منا إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم، فضحكت سارة استبشارا بهلاكهم لكثرة فسادهم وغلظ كفرهم وعنادهم فلهذا حوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس ، وقال قتادة ضحكت وعجبت أن قوما يأتيهم العذاب وهم فى غفلة ، وقوله (ومن وراء إسحق يعقوب) قال العوفى عن ابن عباس فضحكت أى حاضت ، وقول محمد بن قيس إنها إنما ضحكت من أنها ظنت أنهم يريدون أن يعملوا كما يعمل قوم لوط . وقول الكلبى إنها إنما ضحكت لما رأت من الروع بإبراهيم ضعفا ووجدا وإن كان ابن جرير قد رواها بسنده إليهما فلا يلتفت إلى ذلك والله أعلم . وقول وهب بن منبه : إنما ضحكت لما بشرت بإسحق وهذا مخالف لهذا السياق فان البشارة صريحة مرتبة على ضحكها (فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) أى بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل فان يعقوب ولد إسحق كما قال فى آية البقرة (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذا قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون) ومن ههنا استدل من استدل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحق لأنه وقعت البشارة به وأنه سيولد له يعقوب فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده ووعد الله حق لا خلف فيه فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه ، فتعين أن يكون هو إسماعيل وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه وأبينه ولله الحمد (قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا) الآية حكى قولها فى هذه الآية كما حكى فعلها فى الآية الأخرى فانها (قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز) وفى الذاريات (فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم) كما جرت به عادة النساء فى أفوالهن وأفعالهن عند التعجب (قالوا أتعجبين من أمر الله أى قالت الملائكة لها لا تعجبى من أمر الله فانه إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . فلا تعجبى من هذا وإن كنت عجوزا عقيما وبعلك شيخا كبيرا فان الله على ما يشاء قدير (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت أنه حميد مجيد) أى هو الحميد فى جميع أفعاله وأقواله محمود ممجد فى صفاته وذاته ، ولهذا ثبت فى الصحيحين أنهم قالوا : قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك يا رسول الله ؟ قال « قولوا اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبرهيم إنك حميد مجيد »

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ * يَٰٓإِبْرٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾

يخبر تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه لما ذهب عنه الروع وهو ما أوجس من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا وبشروه بعد ذلك بالولد وأخبروه بهلاك قوم لوط أخذ يقول كما قال سعيد بن جبير فى الآية قال لما جاءه جبريل ومن معه قالوا له (انا مهلكوا أهل هذه القرية) قال لهم أتهلكون قرية فيها ثلثمائة مؤمن ؟ قالوا لا ، قال أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن ؟ قالوا : لا قال أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمنا ؟ قالوا لا ، قال ثلاثون ؟ قالوا لا ، حتى بلغ خمسة قالوا لا قال ؟ أرأيتكم أن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها ؟ قالوا لا ، فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك (إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته) الآية فسكت عنهم واطمأنت نفسه ، وقال قتادة وغيره قريبا من هذا زاد ابن إسحق أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد ؟ قالوا لا ، قال فان كان فيها لوط يدفع به عنهم العذاب قالوا (نحن أعلم بمن فيها) الآية ، وقوله (إن إبراهيم لحليم أواه منيب) مدح لإبراهيم بهذه الصفات الجميلة ، وقد تقدم تفسيرها ، وقوله تعالى (يا براهيم أعرض عن هذا

أنه قد جاء أمر ربك) الآية ، أى أنه قد نفذ فيهم القضاء وحقت عليهم الكلمة بالهلاك وحلول البأس الذى لا يرد عن القوم المجرمين

﴿ ولَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَٰذا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾

يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة بعد ما أعلموا إبراهيم بهلاكهم وفارقوه وأخبروه باهلاك الله قوم لوط هذه الليلة فانطلقوا من عنده فأتوا لوطا عليه السلام وهو على ما قيل فى أرض له وقيل فى منزله ووردوا عليه وهم فى أجمل صورة تكون على هيئة شبان حسان الوجوه ابتلاء من الله وله الحكمة والحجة البالغة فساءه شأنهم وضاقت نفسه بسببهم وخشى إن لم يضيفهم أن يضبقهم أحد من قومه فينالهم بسوء (وقال هذا يوم عصيب) قال ابن عباس وغير واحد شديد بلاؤه وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم ويشق عليه ذلك . وذكر قتادة أنهم أتوه وهو فى أرض له فتضيفوه فاستحيا منهم فانطلق أمامهم وقال لهم فى أثناء الطريق كالمعرض لهم بان ينصرفوا عنه انه والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء . ثم مشى قليلا ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات ، قال قتادة وقد كانوا أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك ، وقال السدى خرجب الملائكة من عند إبراهيم نحو قريه لوط فبلغوا نهر سدوم نصف النهار ولقوا بنت لوط تستقى فقالوا يا جارية هل من منزل ؟ فقالت مكانكم حتى آتيكم وفرقت عليهم من قومها فأتت أباها فقالت يا أبتاه أدرك فتيانا على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم أحسن منهم لا يأخذهم قومك وكان قومه نهوه أن يضيف رجلا فقالوا خل عنا فلنضيف الرجال فجاء بهم فلم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته فخرجت امرأته فأخبرت قومها فجاءوا يهرعون إليه وقوله (يهرعون إله) أى يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك وقوله (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) أى لم يزل هذا من سجيتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال وقوله (قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) يرشدهم إلى نسائهم فان النبي للأمة بمنزلة الوالد فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم فى الدنيا والآخرة كما قال لهم فى الآية الأخرى (أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون) وقوله فى الآية الأخرى (قالوا أولم ننهك عن العالمين) أى ألم ننهك عن ضيافة الرجال (قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين * لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) وقال فى هذه الآية الكريمة (هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) قال مجاهد لم يكن بناته ولكن كن من أمته وكل نبي أبو أمته وكذا روى عن قتادة وغير واحد وقال ابن جريج : أمرهم أن يتزوجوا النساء لم يعرض عليهم سفاحا . وقال سعيد بن جبير يعنى نساءهم هن بناته وهو أب لهم ويقال فى بعض القراءات (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم) وكذا روى عن الربيع بن أنس وقتادة والسدى ومحمد بن إسحق وغيرهم وقوله (فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى) أى اقبلوا ما آمركم به من الاقتصار على نسائكم) أليس منكم رجل رشيد) أى فيه خير يقبل ما آمره به ويترك ما أنهاه عنه (قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق) أى إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتهيهن (وإنك لتعلم ما نريد) أى ليس لنا غرض إلا فى الذكور وأنت تعلم ذلك فأى حاجة فى تكرار القول علينا فى ذلك ؟ قال السدى (وإنك لتعلم ما نريد) إنما نريد الرجال

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن نبيه لوط عليه السلام إن لوطا توعدهم بقوله (لو أن لى بكم قوة) الآية أى لكنت نكلت بكم

وفعلت بكم الأفاعيل بنفسي وعشيرتي، ولهذا ورد في الحديث من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد - يعني الله عز وجل - فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه » فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه وأنهم لا وصول لهم إليه (قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) وأمروه أن يسري بأهله من آخر الليل وأن يتبع أدبارهم أي يكون ساقة لأهله (ولا يلتفت منكم أحد) أي إذا سمعت ما نزل بهم ولا تهولنكم تلك الأصوات المزعجة ولكن استمروا ذاهبين (إلا امرأتك) قال الأكثرون هو استثناء من المثبت وهو قوله (فأسر بأهلك) تقديره (إلا امرأتك) وكذلك قرأها ابن مسعود ، ونصب هؤلاء امرأتك لأنه من مثبت فوجب نصبه عندهم ، وقال آخرون من القراء والنحاة هو استثناء من قوله (ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك) فجوزوا الرفع والنصب . وذكر هؤلاء أنها خرجت معهم وأنها لما سمعت الوجبة التفتت وقالت : واقوماه فجاءها حجر من السماء فقتلها ثم قربوا له هلاك قومه تبشيرا له لأنه قال لهم أهلكوهم الساعة فقالوا (إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب) هذا وقوم لوط وقوف على الباب وعكوف قد جاءوا يهرعون إليه من كل جانب ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه وهم لا يقبلون منه بل يتوعدونه ويتهددونه فعند ذلك خرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه فطمس أعينهم فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق كما قال تعالى (ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر) الآية وقال معمر عن قتادة عن حذيفة بن اليمان قال كان إبراهيم عليه السلام يأتي قوم لوط فيقول أنهاكم الله أن تعرضوا لعقوبته فلم يطيعوه حتى إذا بلغ الكتاب أجله انتهت الملائكة إلى لوط وهو يعمل في أرض له فدعاهم إلى الضيافة فقالوا إنا ضيوفك الليلة وكان الله قد عهد إلى جبريل ألا يعذبهم حتى يشهد عليهم لوط ثلاث شهادات فلما توجه بهم لوط إلى الضيافة ذكر ما يعمل قومه من الشر فمشى معهم ساعة ثم التفت إليهم فقال أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية ؟ ما أعلم على وجه الأرض شرا منهم أين أذهب بكم ؟ إلى قومي وهم أشر خلق الله ، فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال احفظوها هذه واحدة ثم مشى معهم ساعة فلما توسط القرية وأشفق عليهم واستحيا منهم قال أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية ؟ ما أعلم على وجه الأرض أشر منهم إن قومي أشر خلق الله فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال احفظوها ثانتان ، فلما انتهى إلى باب الدار بكى حياء منهم وشفقة عليهم فقال إن قومي أشر خلق الله ؟ أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية ؟ ما أعلم على وجه الأرض أهل قرية شرا منهم . فقال جبريل للملائكة احفظوا هذه ثلاث قد حق العذاب فلما دخلوا ذهبت عجوزه عجوز السوء فصعدت فلوحت بثوبها فأتاها الفساق يهرعون سراعا قالوا ما عندك ؟ قالت ضيف لوط قوما ما رأيت قط أحسن وجوها منهم ولا أطيب ريحا منهم فهرعوا يسارعون إلى الباب فعالجهم لوط على الباب فدافعوه طويلا وهو داخل وهم خارج يناشدهم الله ويقول (هؤلاء بناتي هن أطهر لكم) فقام الملك فلزّ بالباب - يقول فشده - واستأذن جبريل في عقوبتهم فأذن الله له فقام في الصورة التي يكون فيها في السماء، فنشر جناحه - ولجبريل جناحان - وعليه وشاح من درمنظوم وهو براق الثنايا أحلى الجبين ورأسه حبك حبك مثل المرجان وهو اللؤلؤ كأنه الثلج ورجلاه إلى الخضرة فقال يا لوط (إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) امض يا لوط عن الباب ودعني وإياهم ، فتنحى لوط عن الباب فخرج إليهم فنشر جناحه فضرب به وجوههم ضربة شدخ أعينهم فصاروا عميا لا يعرفون الطريق ، ثم أمر لوطا فاحتمل بأهله في ليلته قال (فأسر بأهلك بقطع من الليل) وروى عن محمد بن كعب وقتادة والسدي نحو هذا

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾

يقول تعالى (فلما جاء أمرنا) وكان ذلك عند طلوع الشمس (جعلنا عاليها) وهي سدوم (سافلها) كقوله (فغشاها ما غشى) أي أمطرنا عليها حجارة من سجيل وهي بالفارسية حجارة من طين قاله ابن عباس وغيره وقال بعضهم أي

من سنك وهو الحجر وكل وهو الطين وقد قال فى الآية الأخرى حجارة من طين أى مستحجرة قوية شديدة ، وقال بعضهم مشوية ، وقال البخارى سجيل : الشديد الكبير ، سجيل وسجين اللام والنون أختان ، وقال تميم بن مقبل

ورحله يضربون البيض صاحبة * ضربا تواصت به الأبطال سجينا

وقوله (منضود) قال بعضهم منضودة فى السماء أى معدة لذلك وقال آخرون (منضود) أى يتبع بعضها بعضا فى نزولها عليهم وقوله (مسومة) أى معلمة مختومة عليها أسماء أصحابها كل حجر مكتوب عليه اسم الذى ينزل عليه وقال قتادة وعكرمة (مسومة) مطوقة بها نضح من حمرة وذكروا أنها نزلت على أهل البلد وعلى المتفرقين فى القرى مما حولها فبينا أحدهم يكون عند الناس يتحدث إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس فدمره فتتبعهم الحجارة من سائر البلاد حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد ، وقال مجاهد أخذ جبريل قوم لوط من سرحهم ودورهم حملهم بمواشيهم وأمتعتهم ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم كفأها ، وكان حملهم على خوافى جناحه الأيمن قال ولما قلبها كان أول ما سقط منها شرفاتها ، وقال قتادة بلغنا أن جبريل أخذ بعروة القرية الوسطى ثم ألوى بها إلى جو السماء حتى سمع أهل السماء ضواغى كلابهم ثم دمر بعضها على بعض ثم اتبع شذاذ القوم صخراً قال وذكر لنا أنهم كانوا أربع قرى فى كل قرية مائة ألف وفى رواية ثلاث قرى الكبرى منها سدوم ، قال وبلغنا أن إبراهيم عليه السلام كان يشرف على سدوم ويقول سدوم يوم هالك وفى رواية عن قتادة وغيره بلغنا أن جبريل عليه السلام لما أصبح نشر جناحه فانتسف بها أرضهم بما فيها من قصورها ودوابها وحجارتها وشجرها وجميع ما فيها فضمها فى جناحه فحواها وطواها فى جوف جناحه ثم صعد بها إلى السماء الدنيا حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب وكانوا أربعة آلاف ألف ثم قلبها فأرسلها إلى الأرض منكوسة ودمدم بعضها على بعض فجعل عالها سافلها ثم أتبعها حجارة من سجيل ، وقال محمد بن كعب القرظى كانت قرى قوم لوط خمس قريات سدوم وهى العظمى وصعبه وصعود وغمرة ودوحاء احتملها جبريل بجناحه ثم صعد بها حتى إن أهل السماء الدنيا ليسمعون نابحة كلابها وأصوات دجاجها ثم كفأها على وجهها ثم أتبعها الله بالحجارة يقول الله تعالى (جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل) فأهلكها الله وما حولها من المؤتفكات ، وقال السدى لما أصبح قوم لوط نزل جبريل فاقتلع الأرض من سبع أرضين فحملها حتى بلغ بها السماء حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وأصوات ديوكهم ثم قلبها فقتلهم فذلك قوله (والمؤتفكة أهوى) ومن لم يمت حتى سقط للأرض أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة ومن كان منهم شاذا فى الأرض يتبعهم فى القرى فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله فذلك قوله عز وجل (وأمطرنا عليهم) أى فى القرى حجارة من سجيل هكذا قال السدى وقوله (وما هى من الظالمين ببعيد) أى وما هذه النقمة ممن تشبه بهم فى ظلمهم ببعيد عنه ، وقد ورد فى الحديث المروى فى السنن عن ابن عباس مرفوعا « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » وذهب الإمام الشافعى فى قول عنه وجماعة من العلماء إلى أن اللائط يقتل سواء كان محصنا أو غير محصن عملا بهذا الحديث ، وذهب الإمام أبو حنيفة أنه يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾

يقول تعالى ولقد أرسلنا إلى مدين وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريبا من معان . بلادا تعرف بهم يقال لها مدين فأرسل الله اليهم شعيبا وكان من أشرفهم نسبا ، ولهذا قال (أخاهم شعيبا) يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له وينهاهم عن التطفيف فى المكيال والميزان (إنى أراكم بخير) أى فى معيشتكم ورزقكم

وإنى أخاف أن تسلبوا ماأنتم فيه بانتهاكم محارم الله (وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط) أى فى الدار الآخرة

﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾

ينهاهم أولا عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس ، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين ونهاهم عن العثو فى الأرض بالفساد وقد كانوا يقطعون الطريق ، وقوله (بقية الله خيرلكم) قال ابن عباس: رزق الله خيرلكم وقال الحسن رزق الله خير لكم من بخسكم الناس ، وقال الربيع بن أنس وصية الله خيرلكم ، وقال مجاهد طاعة الله وقال قتادة حظكم من الله خيرلكم ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم الهلاك فى العذاب والبقية فى الرحمة ، وقال أبو جعفر بن جرير (بقية الله خيرلكم) أى مايفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خيرلكم من أخذ أموال الناس قال وقد روى هذا عن ابن عباس قلت ويشبه قوله تعالى (قل لايستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث) الآية وقوله (وما أنا عليكم بحفيظ) أى برقيب ولا حفيظ أى افعلوا ذلك لله عز وجل لاتفعلوه ليراكم الناس بل لله عز وجل

﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾

يقولون له على سبيل التهكم قبحهم الله (أصلاتك) قال الأعمش أى قراءتك (تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا) أى الأوثان والأصنام (أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء) فنترك التطفيف عن قولك وهى أموالنا نفعل فيها مانريد ، قال الحسن فى قوله (أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا) أى والله إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم ، وقال الثورى فى قوله (أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء) يعنون الزكاة (إنك لأنت الحليم الرشيد) قال ابن عباس وميمون ابن مهران وابن جريج وأسلم وابن جرير يقولون ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء قبحهم الله لعنهم عن رحمته وقد فعل

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

يقول لهم هل أرأيتم ياقوم إن كنت (على بينة من ربى) أى على بصيرة فيما أدعوا إليه (ورزقنى منه رزقا حسنا) قيل أراد النبوة وقيل أراد الرزق الحلال ويحتمل الأمرين ، وقال الثورى (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) أى لاأنهاكم عن الشىء وأخالف أنا فى السر فأفعله خفية عنكم كما قال قتادة فى قوله (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه يقول لم أكن أنهاكم عن أمر وأرتكبه (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت) أى فيما آمركم وأنهاكم إنما أريد إصلاحكم جهدى وطاقتى (وما توفيقى) أى فى إصابة الحق فيما أريده (إلا بالله عليه توكلت) فى جميع أمورى (وإليه أنيب) أى أرجع قاله مجاهد قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمه حدثنا أبو قزعة سويد بن حجير الباهلى عن حكيم بن معاوية عن أبيه أن أخاه مالكا قال يامعاوية إن محمدا أخذ جيرانى فانطلق إليه فانه قد كلمك وعرفك فانطلقت معه فقال : دع لى جيرانى فقد كانوا أسلموا فأعرض عنه فقام مغضبا فقال : أما والله لئن فعلت إن الناس يزعمون أنك لتأمرنا بالأمر وتخالف إلى غيره وجعلت أجره وهو يتكلم فقال رسول الله « ماتقول ؟ » فقال إنك والله لئن فعلت ذلك إن الناس ليزعمون أنك لتأمر بالأمر وتخالف إلى غيره . قال فقال « أوقد قالوها ـ أى قائلهم ـ[1] ولئن فعلت ماذاك إلا على وما

(١) وفى نسخة الأزهر : أو قائلهم يعنى أوقالها قائلهم .

عليهم من ذلك من شيء أرسلوا له جيرانه » وقال أيضا حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : أخذ النبي ﷺ ناسا من قومي في تهمة فحبسهم فجاء رجل من قومي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فقال يا محمد علام تحبس جيراني ؟ فصمت رسول الله ﷺ فقال : إن ناسا ليقولون إنك تنهى عن الشيء وتستخلي به فقال النبي صلى الله عليه وسلم « ما تقول » قال فجعلت أعرض بينهما كلاما مخافة أن يسمعها فيدعو على قومي دعوة لا يفلحون بعدها أبداً فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فهمها فقال «قد قالوها أو قائلها منهم والله لو فعلت لكان على وما كان عليهم خلوا عن جيرانه » ومن هذا القبيل الحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا أبو عامر حدثنا سليمان بن بلال عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن عبد الملك بن سعيد بن سويد الأنصاري قال سمعت أبا حميد وأبا أسيد يقولون عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه » إسناده صحيح . وقد أخرج مسلم بهذا السند حديث « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك ، وإذا خرج فليقل اللهم إني أسألك من فضلك » ومعناه والله أعلم مهما بلغكم عني من خير فأنا أولاكم به . ومهما يكن من مكروه فأنا أبعدكم منه (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) وقال قتادة عن عروة عن الحسن العرني عن يحيى بن البزار عن مسروق قال : جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت تنهى عن الواصلة ؟ قال نعم ، قالت فعله بعض نسائك ، فقال ما حفظت وصية العبد الصالح إذاً (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) وقال عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن أبي سليمان الضبي قال كانت تجيئنا كتب عمر بن عبد العزيز فيها الأمر والنهي فيكتب في آخرها وما كانت من ذلك إلا كما قال العبد الصالح (وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ * وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾

يقول لهم (ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي) أي لا يحملنكم عداوتي وبغضي على الاصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط من النقمة والعذاب وقال قتادة (ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي) يقول لا يحملنكم فراقي ، وقال السدي عداوتي ، على أن تمادوا في الضلال والكفر فيصيبكم من العذاب ما أصابهم . وقال ابن أبي حاتم حدثنا ابن عوف الحمصي حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج حدثنا ابن أبي عيينة حدثني عبد الملك بن أبي سليمان عن ابن أبي ليلى الكندي قال : كنت مع مولاي أمسك دابته وقد أحاط الناس بعثمان ابن عفان إذ أشرف علينا من داره فقال (يا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح) يا قوم لا تقتلوني إنكم إن قتلتموني كنتم هكذا وشبك بين أصابعه ، وقوله (وما قوم لوط منكم ببعيد) قيل المراد في الزمان ، قال قتادة يعني إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس ، وقيل في المكان ويحتمل الأمران (واستغفروا ربكم) من سالف الذنوب (ثم توبوا إليه) فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة وقوله (إن ربي رحيم ودود) لمن تاب

﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ۖ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

يقولون (يا شعيب ما نفقه) ما نفهم (كثيرا) من قولك (وإنا لنراك فينا ضعيفا) قال سعيد بن جبير والثوري وكان ضرير البصري ؛ وقال الثوري كان يقال له خطيب الأنبياء ؛ قال السدي (وإنا لنراك فينا ضعيفا) قال أنت واحد، وقال أبو روق يعنون ذليلا لأن عشيرتك ليسوا على دينك (ولولا رهطك لرجمناك) أي قومك لولا معزتهم علينا

لرجمناك قيل بالحجارة وقيل لسببناك (وما أنت علينا بعزيز) أى ليس عندنا لك معزة (قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله) يقول أتتركونى لأجل قومى ولا تتركونى إعظاما لجناب الرب تبارك وتعالى أن تنالوا نبيه بمساءة وقد اتخذتم جانب الله (وراءكم ظهريا) أى نبذتموه خلفكم لا تطيعونه ولا تعظمونه (إن ربى بما تعملون محيط) أى هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيكم

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ * وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾

لما يئس نبى الله شعيب من استجابتهم له قال يا قوم (اعملوا على مكانتكم) أى طريقتكم وهذا تهديد شديد (إنى عامل) على طريقتى (سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب) أى منى ومنكم (وارتقبوا) أى انتظروا (إنى معكم رقيب) قال الله تعالى (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) وقوله جاثمين أى هامدين لاحراك بهم . وذكر ههنا أنه أتتهم صيحة ، وفى الأعراف رجفة وفى الشعراء عذاب يوم الظلة وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها ، وإنما ذكر فى كل سياق ما يناسبه ففى الأعراف لما قالوا (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا) ناسب أن يذكر هناك الرجفة فرجفت بهم الأرض التى ظلموا بها وأرادوا إخراج نبيهم منها ، وههنا لما أساءوا الأدب فى مقالتهم على نبيهم ذكر الصيحة التى استلبثتهم وأخمدتهم ، وفى الشعراء لما قالوا (فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين) قال فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) وهذا من الأسرار الدقيقة ولله الحمد والمنة كثيرا دائما ، وقوله كأن لم يغنوا فيها) أى يعيشوا فى دارهم قبل ذلك (ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود) وكانو جيرانهم قريبا منهم فى الدار وشبيها بهم فى الكفر وقطع الطريق وكانوا عربا مثلهم

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ * وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن إرسال موسى بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون ملك القبط وملئه (فاتبعوا أمر فرعون) أى منهجه ومسلكه وطريقته فى الغى (وما أمر فرعون برشيد) أى ليس فيه رشد ولاهدى . وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد ، وكما أنهم اتبعوه فى الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إياها وشربوا من حياض رداها ؛ وله فى ذلك الحط الأوفر ، من العذاب الأكبر ، كما قال تعالى (فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا) وقال تعالى (فكذب وعصى * ثم أدبر يسعى * فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى * إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) وقال تعالى (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ، وبئس الورد المورود) وكذلك شأن المتبوعين يكونون موفرين فى العذاب يوم القيامة كما قال تعالى (لكل ضعف ولكن لا تعلمون) وقال تعالى إخبارا عن الكفرة أنهم يقولون فى النار (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب) الآية وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم حدثنا أبو الجهم عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « امرؤ القيس حامل لواء شعراء الجاهلية إلى النار » وقوله

(وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة) الآية أى أتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة فى الدنيا (ويوم القيامة بئس الرفد المرفود) قال مجاهد : زيدوا لعنة يوم القيامة فتلك لعنتان ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (بئس الرفد المرفود) قال لعنة الدنيا والآخرة وكذا قال الضحاك وقتادة وهو كقوله (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لاينصرون* وأتبعناهم فى هذه الدنيا ويوم القيامة هم من المقبوحين) وقال تعالى (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب)

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾

لما ذكر تعالى خبر الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين قال (ذلك من أنباء القرى) أى أخبارهم (نقصه عليك منها قائم) أى عامر (وحصيد) أى هالك (وما ظلمناهم) أى إذ أهلكناهم (ولكن ظلموا أنفسهم) بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم (فما أغنت عنهم آلهتهم) أوثانهم التى يعبدونها ويدعونها (من دون الله من شىء) ما نفعوهم ولا أنقذوهم باهلاكهم (وما زاد وهم غير تتبيب) قال مجاهد وقتادة وغيرهما أى غير تخسير وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة فلهذا خسروا فى الدنيا والآخرة

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾

يقول تعالى وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا كذلك نفعل بأشباههم (إن أخذه أليم شديد)وفى الصحيحين عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة) الآية

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ * وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾

يقول تعالى إن فى إهلاكنا الكافرين وإنجائنا المؤمنين (لآية) أى عظة واعتبارا على صدق موعودنا فى الآخرة (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) وقال تعالى (فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين) الآية وقوله (ذلك يوم مجموع له الناس) أى أولهم وآخرهم كقوله (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا) (وذلك يوم مشهود) أى عظيم تحضره الملائكة ويجتمع فيه الرسل وتحشر الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب ويحكم فيه العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة إن تك حسنة يضاعفها ، وقوله (وما نؤخره إلا لأجل معدود) أى ما نؤخر إقامة القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله فى وجود أناس معدودين من ذرية آدم وصرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم قامت الساعة ولهذا قال (وما نؤخره إلا لأجل معدود) أى لمدة مؤقتة لايزاد عليها ولا ينتقص منها (يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه) أى يوم يأتى يوم القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن الله كقوله (لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) وقال (وخشعت الأصوات للرحمن)الآية . وفى الصحيحين فى حديث الشفاعة «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم» وقوله (فمنهم شقى وسعيد) أى فمن أهل الجمع شقى ومنهم سعيد كما قال (فريق فى الجنة وفريق فى السعير) وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده ثنا موسى بن حسان ثنا عبد الملك بن عمرو ثنا سليمان أبو سفيان ثنا عبدالله بن دينار عن ابن عمر عن عمر قال : لما نزلت (فمنهم شقى وسعيد) سألت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله : علام نعمل ؟ على شىء قد فرغ منه أم على شىء لم يفرغ منه ، فقال «على شىء

قد فرغ منه يا عمر وجرت به الأقلام ، ولكن كل ميسر لما خلق له » ثم بين تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾

يقول تعالى (لهم فيها زفير وشهيق) قال ابن عباس الزفير في الحلق والشهيق في الصدر أى تنفسهم زفير وأخذهم النفس شهيق ، لما هم فيه من العذاب عياذاً بالله من ذلك (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض) قال الإمام أبو جعفر بن جرير : من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت هذا دائم دوام السموات والأرض ، وكذلك يقولون هو باق ما اختلف الليل والنهار ، وما سمر أبناء سمير وما لألأت العير بأذنابها يعنون بذلك كله أبدا فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم فقال (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض) قلت : ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض الجنس لأنه لابد في عالم الآخرة من سموات وأرض كما قال تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) ولهذا قال الحسن البصرى في قوله (ما دامت السموات والأرض) قال يقول سماء غير هذه السماء وأرض غير هذه فما دامت تلك السماء وتلك الأرض . وقال ابن أبي حاتم ذكر عن سفيان بن حسين عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس قوله (مادامت السموات والأرض) قال لكل جنة سماء وأرض ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم مادامت الأرض أرضا والسماء سماء . وقوله (إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد) كقوله (النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم) وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة حكاها الشيخ أبو الفرج بن الجوزى في كتابه زاد المسير ، وغيره من علماء التفسير ، ونقل كثيرا منها الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله في كتابه واختار هو ما نقله عن خالد بن معدان والضحاك وقتادة وابن سنان ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن أيضا أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين ، من الملائكة والنبيين والمؤمنين ، حتى يشفعون في أصحاب الكبائر ثم تأتى رحمة أرحم الراحمين فتخرج من لم يعمل خيرا قط وقال يوما من الدهر لا إله إلا الله كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك من حديث أنس وجابر وأبي سعيد وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد له عنها ، وهذا الذى عليه كثير من العلماء قديماً وحديثا في تفسير هذه الآية الكريمة . وقد روى في تفسيرها عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وابن مسعود وابن عباس و أبي هريرة وعبد الله بن عمرو وجابر وأبي سعيد من الصحابة ، وعن أبي مجلز والشعبي وغيرهما من التابعين ، وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وإسحق بن راهويه وغيرهما من الأئمة في أقوال غريبة وورد حديث غريب في معجم الطبراني الكبير عن أبي أمامة صدى بن عجلان الباهلي ولكن سنده ضعيف والله أعلم. وقال قتادة: الله أعلم بثنياه ، وقال السدى هي منسوخة بقوله (خالدين فيها أبدا)

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾

يقول تعالى (وأما الذين سعدوا) وهم أتباع الرسل (ففي الجنة) أى فمأواهم الجنة (خالدين فيها) أى ماكثين فيها أبدا (ما دامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك) معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمرا واجبا بذاته بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى فله المنة عليهم دائما ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس . وقال الضحاك والحسن البصرى هي في حق عصاة الموحدين الذين كانوا في النار ثم أخرجوا منها وعقب ذلك بقوله (عطاء غير مجذوذ) أى غير مقطوع قاله مجاهد وابن عباس وأبو العالية وغير واحد لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاع أو لبس أو شيء بل ختم له بالدوام وعدم الانقطاع كما بين هناك أن عذاب أهل النار في النار دائما مردود إلى مشيئته وأنه بعدله وحكمته عذبهم ولهذا قال (إن ربك فعال لما يريد) كما قال (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) وهنا طيب القلوب وثبت المقصود بقوله

(عطاء غير مجذوذ) وقد جاء فى الصحيحين « يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلاموت ، ويا أهل النار خلود فلاموت » وفى الصحيح أيضا « فيقال يا أهل الجنة إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلاتهرموا أبدا وإن لكم أن تصحوا فلاتسقموا أبدا وإن لكم أن تنعموا فلاتبأسوا أبدا »

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ * وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

يقول تعالى (فلاتك فى مرية مما يعبد هؤلاء) المشركون انه باطل وجهل وضلال فانهم إنما يعبدون مايعبد آباؤهم من قبل أى ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء فى الجهالات وسيجزيهم الله على ذلك أتم الجزاء فيعذبهم عذاباً لايعذبه أحدا وان كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها فى الدنيا قبل الآخرة . قال سفيان الثورى عن جابر الجعفى عن مجاهد عن ابن عباس (وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص) قال ماوعدوا من خير أو شر . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص ثم ذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه فمن مؤمن به ومن كافر به فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يامحمد أسوة فلا يغيظنك تكذيبهم لك ولايهيدنك ذلك (ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم) قال ابن جرير لولا ماتقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لقضى الله بينهم ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لايعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول اليه كما قال (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فانه قد قال فى الآية الأخرى (ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى * فاصبر على مايقولون) ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم ويجزيهم بأعمالهم إن خيرا فخير وان شرا فشر فقال (وإن كلالما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير) أى عليم بأعمالهم جميعها جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها وفى هذه الآية قرا آت كثيرة يرجع معناها إلى هذا الذى ذكرناه كما فى قوله تعالى (وإن كل لما جميع لدينا محضرون)

وقوله (ولاتركنوا إلى الذين ظلموا) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس لاتداهنوا وقال العوفى عن ابن عباس هو الركون إلى الشرك وقال أبو العالية لاترضوا بأعمالهم وقال ابن جرير عن ابن عباس ولاتميلوا إلى الذين ظلموا وهذا القول حسن أى لاتستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم (فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لاتنصرون) أى ليس لكم من دونه من ولى ينقذكم ولاناصر يخلصكم من عذابه

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد ونهى عن الطغيان وهو البغى فانه مصرعة حتى ولو كان على مشرك وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد لايغفل عن شىء ولايخفى عليه شىء

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ * وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (وأقم الصلاة طرفى النهار) قال يعنى الصبح والمغرب وكذا قال الحسن وعبد الرحمن

ابن زيد بن أسلم ، وقال الحسن فى رواية قتادة والضحاك وغيرهم هى الصبح والعصر وقال مجاهد هى الصبح فى أول النهار والظهر والعصر مرة أخرى (وزلفاً من الليل) قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم يعنى صلاة العشاء وقال الحسن فى رواية ابن المبارك عن مبارك بن فضالة عنه (وزلفاً من الليل) يعنى المغرب والعشاء قال رسول الله ﷺ « هما زلفاً الليل المغرب والعشاء » وكذا قال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والضحاك إنها صلاة المغرب والعشاء ، وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الاسراء فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان . صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها ، وفى أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة ثم نسخ فى حق الأمة وثبت وجوبه عليه ثم نسخ عنه أيضا فى قول والله أعلم .

وقوله (إن الحسنات يذهبن السيئات) يقول إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن أمير المؤمنين على ابن أبى طالب قال : كنت إذا سمعت من رسول الله حديثا نفعنى الله بما شاء أن ينفعنى منه وإذا حدثنى عنه أحد استحلفته فاذا حلف لى صدقته ، وحدثنى أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « مامن مسلم يذنب ذنبا فيتوضأ ويصلى ركعتين إلا غفر له » وفى الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : هكذا رأيت رسول الله يتوضأ وقال « من توضأ وضوئى هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ماتقدم من ذنبه » وروى الإمام أحمد وأبو جعفر بن جرير من حديث أبى عقيل زهرة بن معبد أنه سمع الحارث مولى عثمان يقول : جلس عثمان يوما وجلسنا معه فجاءه المؤذن فدعا عثمان بماء فى إناء أظنه سيكون فيه قدر مد فتوضأ ثم قال رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئى هذا ثم قال « من توضأ وضوئى هذا ثم قام فصلى صلاة الظهر غفر له ما بينه وبين صلاة الصبح ثم صلى العصر غفر له مابينه وبين صلاة الظهر ثم صلى المغرب غفر له مابينه وبين صلاة العصر ثم صلى العشاء غفر له مابينه وبين صلاة المغرب ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته ثم إن قام فتوضأ وصلى الصبح غفر له مابينها وبين صلاة العشاء وهن الحسنات يذهبن السيئات » وفى الصحيح عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهرا غمرا يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيئا ؟ » قالوا لا يارسول الله قال « كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا » وقال مسلم فى صحيحه حدثنا أبو الطاهر وهو ابن سعيد قالا حدثنا ابن وهب عن أبى صخر أن عمر بن إسحق مولى زائدة حدثه عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر » . وقال الإمام أحمد حدثنا الحكم بن نافع حدثنا إسماعيل بن عياش عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد أن أبارهم السمعى كان يحدث أن أبا أيوب الأنصارى حدثه أن رسول الله ﷺ كان يقول « إن كل صلاة تحط ما بين يديها من خطيئة » وقال أبو جعفر بن جرير حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا أبى عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ « جعلت الصلوات كفارات لما بينهن » فإن الله قال (إن الحسنات يذهبن السيئات)

وقال البخارى حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا يزيد بن زريع عن سليمان التيمى عن أبى عثمان النهدى عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى النبى ﷺ فأخبره فأنزل الله (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات) فقال الرجل يارسول الله ألى هذا ؟ قال « لجميع أمتى كلهم » هكذا رواه فى كتاب الصلاة وأخرجه فى التفسير عن مسدد عن يزيد بن زريع بنحوه ورواه مسلم وأحمد وأهل السنن إلا أبا داود من طرق عن أبى عثمان النهدى واسمه عبد الرحمن بن مل به . ورواه الإمام أحمد ومسلم والترمذى والنسائى وابن جرير وهذا لفظه من طرق عن سماك بن حرب أنه سمع إبراهيم بن يزيد يحدث عن علقمة والأسود عن ابن مسعود قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله انى وجدت امرأة فى بستان ففعلت بها كل شىء غير أنى لم أجامعها قبلتها ولزمتها ولم أفعل غير ذلك فافعل بى ماشئت فلم يقل رسول الله ﷺ شيئا فذهب الرجل . فقال عمر لقد استر الله عليه لو ستر على نفسه ، فأتبعه رسول الله ﷺ بصره

ثم قال « ردوه علي » فردوه عليه فقرأ عليه (أقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) فقال معاذ وفي روايه عمر يا رسول الله ألله وحده أم للناس كافة ؟ فقال « بل للناس كافة » وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن عبيد حدثنا أبان بن إسحق عن الصباح بن محمد عن مرة الهمداني عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا من أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه » قال قلنا وما بوائقه يا نبي الله ؟ قال « غشه وظلمه ولا يكسب عبد مالا حراما فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق فيقبل منه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار إن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن إن الخبيث لا يمحو الخبيث » وقال ابن جرير حدثنا أبو السائب حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم قال كان فلان بن معتب رجلا من الأنصار فقال يا رسول الله دخلت على امرأة فنلت منها ما ينال الرجل من أهله إلا أني لم أواقعها فلم يدر رسول الله ما يجيبه حتى نزلت هذه الآية (وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) فدعاه رسول الله فقرأها عليه وعن ابن عباس أنه عمرو بن غزية الأنصاري النمار وقال مقاتل هو أبو نفيل عامر بن قيس الأنصاري وذكر الخطيب البغدادي أنه أبو اليسر كعب بن عمرو . وقال الإمام أحمد حدثنا يونس وعفان قالا حدثنا حماد يعني ابن سلمة عن علي بن زيد قال عفان أنبأنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رجلا أتى عمر فقال إن امرأة جاءت تبايعه فأدخلتها الدوجلج فأصبت منها مادون الجماع ، فقال ويحك لعلها مغيبة في سبيل الله ؟ قال أجل ، قال فائت أبا بكر فسله . قال فأتاه فسأله فقال لعلها مغيبة في سبيل الله ؟ فقال مثل قول عمر ثم أتى النبي ﷺ فقال له مثل ذلك قال « فلعلها مغيبة في سبيل الله » ونزل القرآن (وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات) إلى آخر الآية ، فقال يا رسول الله لي خاصة أم للناس عامة ؟ فضرب يعني عمر صدره بيده وقال لا ولا نعمة عين بل للناس عامه فقال رسول الله ﷺ « صدق عمر » وروى الإمام أبو جعفر بن جرير من حديث قيس بن الربيع عن عثمان بن موهب موسى بن طلحة عن أبي اليسر كعب بن عمرو الأنصاري قال أتتني امرأة تبتاع مني بدرهم تمرا فقلت إن في البيت تمرا أجود من هذا فدخلت فأهويت إليها فقبلتها فأتيت عمر فسألته فقال اتق الله واستر على نفسك ولا تخبرن أحدا قال فلم أصبر حتى أتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال « أخلفت رجلا غازيا في سبيل الله في أهله بمثل هذا ؟ » حتى ظننت أني من أهل النار حتى تمنيت أني أسلمت ساعتئذ فاطرق رسول الله ﷺ ساعة فنزل جبريل فقال أبو اليسر فجئت فقرأ علي رسول الله (وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) فقال إنسان يا رسول الله له خاصة أم للناس عامة ؟ قال « للناس عامة » وقال الحافظ أبو الحسن الدارقطني حدثنا الحسين بن سهل المحاملي حدثنا يوسف بن موسى حدثنا جرير عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبل أنه كان قاعدا عند النبي ﷺ فجاء رجل فقال يا رسول ما تقول في رجل أصاب من امرأة لا تحل له فلم يدع شيئا يصيبه الرجل من امرأته إلا قد أصاب منها غير أنه لم يجامعها ؟ فقال له النبي ﷺ توضأ وضوءا حسنا ثم قم فصل » فأنزل الله عز وجل هذه الآية يعني قوله (وأقم الصلاة طرفي النهار) فقال معاذ أهي له خاصة أم للمسلمين عامة ؟ قال « بل للمسلمين عامة » ورواه ابن جرير من طرق عن عبد الملك بن عمير به . وقال عبد الرزاق حدثنا محمد بن مسلم عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة أن رجلا من أصحاب النبي ﷺ ذكر امرأة وهو جالس مع رسول الله فاستأذنه لحاجة فأذن له فذهب يطلبها فلم يجدها فأقبل الرجل يريد أن يبشر النبي ﷺ بالمطر فوجد المرأة جالسة على غدير فدفع في صدرها وجلس بين رجلها فصار ذكره مثل الهدبة فقام نادما حتى أتى النبي ﷺ فأخبره بما صنع فقال له « استغفر ربك وصل أربع ركعات » قال وتلا عليه (وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل الآية . وقال ابن جرير حدثني عبد الله بن أحمد بن سيبويه حدثنا إسحق بن إبراهيم حدثني عمرو بن الحارث حدثني عبد الله بن سالم عن الزبيدي سليم بن عامر أنه سمع أبا أمامة يقول إن رجلا أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أقم في حد الله ـ مرة أو اثنتين ـ فأعرض عنه رسول الله ثم أقيمت الصلاة فلما قرع النبي ﷺ من الصلاة قال « أين هذا

الرجل القائل أقم فى حد الله ؟ » قال أنا ذا . قال أتممت الوضوء وصليت معنا آنفا ؟ قال نعم . قال « فانك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد » وأنزل الله على رسول الله (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أنبأنا على بن زيد عن أبى عثمان قال كنت مع سلمان الفارسى تحت شجرة فأخذ منها غصنا يابسا فهزه حتى تحات ورقه ثم قال أبا عثمان ألا تسألنى لم أفعل هذا قلت ولم تفعله قال هكذا فعل رسول الله ﷺ فقال: إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطاياه كما يتحات هذا الورق. وقال (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن حبيب بن أبى ثابت عن ميمون بن أبى شبيب عن معاذ أن رسول الله ﷺ قال له يا معاذ « أتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن حبيب عن ميمون بن أبى شبيب عن أبى ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » وقال أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن شمر بن عطية عن أشياخه عن أبى ذر قال قلت يارسول الله أوصنى ، قال « إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها » قال قلت يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال « هى أفضل الحسنات » وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا هذيل بن إبراهيم الجمانى حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الزهر من ولد سعد بن أبى وقاص عن الزهرى عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ « ما قال عبد لا إله إلا الله فى ساعة من ليل أو نهار إلا طلست ما فى الصحيفة من السيئات حتى تسكن إلى مثلها من الحسنات » عثمان بن عبد الرحمن يقال له الوقاصي فيه ضعف . وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا بشر بن آدم وزيد بن أخرم قالا حدثنا الضحاك بن مخلد حدثنا مستور بن عباد عن ثابت عن أنس أن رجلا قال يا رسول الله ما تركت من حاجة ولا داجه فقال رسول الله ﷺ « تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ؟ » قال بلى . قال « فان هذا يأتى على ذلك » تفرد به من هذا الوجه مستور

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾

يقول تعالى فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد فى الأرض ، وقوله (الا قليلا) أى قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيرا وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما قال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وفى الحديث « ان الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب » ولهذا قال تعالى (فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم) وقوله (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه) أى استمروا على ماهم عليه من المعاصى والمنكرات ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجأهم العذاب (وكانوا مجرمين) ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهى ظالمة لنفسها ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين كما قال تعالى (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم) وقال (وما ربك بظلام للعبيد)

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحده من إيمان أو كفر كما قال تعالى (ولو شاء ربك لآمن من

فى الأرض كلهم جميعا) وقوله (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك) أى ولا يزال الخلف بين الناس فى أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم ، قال عكرمة مختلفين فى الهدى وقال الحسن البصرى مختلفين فى الرزق يسخر بعضهم بعضا ،والمشهور الصحيح الأول . وقوله (إلا من رحم ربك) أى إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين، أخبرتهم به رسل الله إليهم ولم يزل دلك دأبهم حتى كان النبي وخاتم الرسل والأنبياء فاتبعوه وصدقوه ووازروه ففاز بسعادة الدنيا والآخرة لأنهم الفرقة الناجية كما جاء فى الحديث المروى فى المسانيد والسنن من طرق يشد بعضها بعضا « ان اليهود افترقت على إحدى وسبعين فرقة وان النصارى افترقت على ثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا فرقة واحدة » قالوا ومن هم يا رسول الله ؟ قال «ما أنا عليه وأصحابى » رواه الحاكم فى مستدركه بهذه الزيادة، وقال عطاء (ولا يزالون مختلفين) يعنى اليهود والنصارى والمجوس إلا من رحم ربك) يعنى الحنيفية وقال قتادة أهل رحمة الله أهل الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم ، وقوله (ولذلك خلقهم) قال الحسن البصرى فى رواية عنه وللاختلاف خلقهم ، وقال مكى بن أبى طلحة عن ابن عباس: خلقهم فريقين كقوله (فمنهم شقى وسعيد) وقيل للرحمة خلقهم قال ابن وهب أخبرنى مسلم بن خالد عن ابن أبى نجيح عن طاوس أن رجلين اختصما إليه فأكثرا فقال طاوس اختلفما وأكثرتما فقال أحد الرجلين لذلك خلقنا فقال طاوس : كذبت فقال أليس الله يقول (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) قال لم يخلقهم ليختلفوا ولكن خلقهم للجماعة والرحمة كما قال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب ، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وقيل بل المراد وللرحمة والاختلاف خلقهم كما قال الحسن البصرى فى رواية عنه فى قوله (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) قال الناس مختلفون على أديان شتى (إلا من رحم ربك) فمن رحم ربك غير مختلف فقيل له لذلك خلقهم قال خلق هؤلاء لجنته وخلق هؤلاء لناره وخلق هؤلاء لعذابه وكذا قال عطاء بن أبى رباح والأعمش ، وقال ابن وهب سألت مالكا عن قوله تعالى (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) قال فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، وقد اختار هذا القول ابن جرير وأبو عبيد الفراء وعن مالك فيما روينا عنه فى التفسير (ولذلك خلقهم) قال للرحمة وقال قوم للاختلاف وقوله (وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) يخبر تعالى أنه قد سبق فى قضائه وقدره لعلمه التام وحكمته النافذة أن ممن خلقه من يستحق الجنة ومنهم من يستحق النار وأنه لابد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس وله الحجة البالغة والحكمة التامة. وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « اختصمت الجنة والنار فقالت الجنة مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم وقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين فقال الله عز وجل للجنة : أنت رحمتى أرحم بك من أشاء وقال للنار أنت عذابى أنتقم بك ممن أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها فأما الجنة فلا يزال فيها فضل حتى ينشىء الله لها خلقا يسكن فضل الجنة وأما النار فلا تزال تقول هل من مزيد حتى يضع عليها رب العزة قدمه فتقول قط قط وعزتك».

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات وما احتملته الأنبياء من التكذيب والأذى وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين . كل هذا مما نثبت به فؤادك أى قلبك يا محمد ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة ، وقوله (وجاءك فى هذه الحق) أى هذه السورة قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة من السلف ، وعن الحسن فى رواية عنه وقتادة فى هذه الدنيا والصحيح فى هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك الكافرين جاءك فيها

فصص حق وبأ صدق وموعظة يرتدع بها الكافرون وذكرى يتذكر بها المؤمنون

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾

يقول تعالى آمرا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد (اعملوا على مكانتكم) أى على طريقتكم ومنهجكم (إنا عاملون) أى على طريقتنا ومنهجنا (وانتظروا إنا منتظرون) أى (فستعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون) وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره وأيده وجعل كلمته هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض وأنه إليه المرجع والمآب ، وسيؤتى كل عامل عمله يوم الحساب ، فله الخلق والأمر ، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه . فإنه كاف من توكل عليه وأناب إليه ، وقوله (وما ربك بغافل عما تعملون) أى ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء فى الدنيا والآخرة وسينصرك وحزبك عليهم فى الدارين ، وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا زيد بن الحباب عن جعفر ابن سليمان عن أبى عمران الجونى عن عبد الله بن رباح عن كعب قال خاتمة التوراة خاتمة هود

﴿ تم تفسير سورة هود ﴾

﴿ تفسير سورة يوسف عليه السلام وهى مكية ﴾

روى الثعلبى وغيره من طريق سلام بن سليم ويقال سلم المدائنى وهو متروك عن هارون بن كثير وقد نص على جهالته أبو حاتم عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبى أمامة عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ « علموا أرقاءكم سورة يوسف فإنه أيما مسلم تلاها أوعلمها أهله أوما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه من القوة أن لا يحسد مسلماً » وهذا من هذا الوجه لا يصح لضعف إسناده بالكلية ، وقد ساقه الحافظ ابن عساكر متابعا من طريق القاسم بن الحكم عن هارون بن كثير به ومن طريق شبابة عن محمد بن عبد الواحد النضرى عن على ابن زيد بن جدعان ، وعن عطاء بن أبى ميمونة عن زر بن حبيش عن أبى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم فذكر نحوه وهو منكر من سائر طرقه ، وروى البيهقى فى الدلائل أن طائفة من اليهود حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة أسلموا لموافقتها ما عندهم وهو من رواية الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم فى أول سورة البقرة وقوله (تلك آيات الكتاب) أى هذه آيات الكتاب وهو القرآن المبين أى الواضح الجلى الذى يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرها ويبينها (إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعانى التى تقوم بالنفوس فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك فى أشرف بقاع الأرض ، وابتدىء إنزاله فى أشرف شهور السنة وهو رمضان ، فكمل من كل الوجوه ، ولهذا قال تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن ، وقد ورد فى سبب نزول هذه الآية